مراجع الوطنية الفلسطينية

د. فيصل درّاج *

يتداخل في الوطنية الفلسطينية، منذ بدايات تشكّلها إلى اليوم، عنصران لا يكفّان عن التجدّد: إنكار المشروع الصهيوني للوجود الفلسطيني، شعباً وحقوقاً، وكفاح الفلسطينيين تأكيداً لوجودهم، ومطالبة بالاعتراف بحقوقهم. أفضى العنصران، اللذان لم يستقرا في صيغة أخيرة، إلى ديمومة المسألة الفلسطينية، التي هي من ديمومة شعب لا يتنازل عن حقوقه، ولا يركن إلى "الأمر الواقع"، متجاوزاً واقعاً معقد العلاقات يدعى : ميزان القوى. ولعل توزّع الكفاح الفلسطيني على "الوطن السليب"، الذي انتمى إليه ولا يزال، وعلى منفى متنوّع الأماكن، هو الذي أنتج وطنية استثنائية، تباين غيرها من الوطنيات المألوفة، التي لم يعرف أهلها الاغتصاب والشتات وإنكار الحقوق.

حمل الفلسطينيون وطنهم في ذواتهم، وبقوا فلسطينيين، أكانوا هوامش في وطنهم "الأصلي"، أم هوامش في المنفى البعيد عن الوطن.

١. الإنكار القديم والمقاومة المتجددة:

في الأشهر الأولى لعام ١٩١٥ حرّر الإنجليزي لورانس مذكرة حول سوريا جاء فيها: "القدس ليست أكثر من فندق واسع لزائرين عابرين، "حالها من حال فلسطين التي هي كوزموبوليتية، نظراً لوجود الأماكن المقدسة فيها". تحولت فلسطين والقدس في هذا التوصيف، إلى مكانين مجرّدين، وجودهما من

* ناقد فلسطيني

وجود زائرين عابرين، تجذبهم الأماكن المقدسة. والناقص في التوصيف، القائم على معادلات استعمارية تستلهم "القوة"، هم الفلسطينيون الذين لهم تاريخ وثقافة وهوية مرتبطة بالحياة.

لم يأخذ لورنس، الذي كان يعتبر مختصاً نافذاً بشؤون سوريا ذاك الزمان، بالشعار الصهيوني المألوف "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، الذي نقض العياني الموجود بحلم لاهوتي يهودي، بل أعاد صوغه بمجاز مرتجل هو : الفندق، مكان الخدمات الموزّع على جميع المدن، كما لو كان تاريخ القدس من تاريخ زوّارها "المتدينين"، أو محصلة لأماكن عبادة وزوار غربيين يجذبهم "الشرق" الذي عرف ديانات سماوية ثلاث. أقام الإنجليزي، الذي كان مولعاً بالآثار، تصوره على عنصرين متكاملين: الاختراع الذي يختصر مكاناً كثيف الدلالات إلى بقعة لا هوية لها، أقرب إلى الموانئ المفتوحة، والقوة المسلّحة التي تحوّل "المكان المخترع" إلى دولة يهودية جديدة. صيّر العنصران فلسطين إلى مكان "فارغ" يتناوب عليه سواح لهم هويات دينية تتسع، بداهة، للهوية اليهودية، التي يتمتع أصحابها بحق الإقامة في الفنادق المقدسية. غير أن وعد بلفور بيّن، سريعاً، أن للقدس أهلاً يملأون الشوارع بالمظاهرات، ويقاتلون دفاعاً عن أرض موروثة، لا تمنح للغير ولا "تؤجر"، دعاها غسان كنفاني في لحظة الرضا المتفائل : أرض البنادق والرجال.

سار لورانس وراء حقيقة مسلحة، قد تنتصر ولا تهزم ضحاياها، وتمد مقاومتها الضحايا بمعرفة وإرادة متجدّدتين، تعيدان تعريف "الضعيف"، الذي أنكر وجوده. أرهق الفلسطينيون في ثورة ١٩٣٦ الجيش البريطاني إرهاقاً، دفع بالإنجليز إلى التماس "وساطة" أصدقائهم من الملوك والحكّام العرب. ألغى لورانس المسافة بين الحقيقة والقوة، ولم يستطع التحرر من أطياف "الكائن الفلسطيني"، فبعد إنكار فلسطينية المكان وأهله، تحدّث عن وجوه أهل القدس الكئيبة، واعترف بأن الفلاح الفلسطيني "يتشبّث بأرضه حتى لو كانت صغيرة وبائسة"؛ موحياً بأنه امتداد لها، بقدر ما هي امتداد تاريخي كثيف يمدّه بالخصائص أو الهوية. كان "صانع الدول"، كما دعاه المؤرخ الفرنسي هنري لورانس، يرى إلى ما يجب أن يكون، إذ مستقبل الأراضي الفلسطيني المخترعة من مستقبل "وعد بلفور"، الذي جاء بالمأساة الفلسطينية، ولم ينجح في إلغاء الفلسطينيين.

أيقظ المبدأ الإنجليزي، القائم على الإنكار، في الفلسطينيين مبدأ المطالبة بالاعتراف، الذي أعطى حياتهم بين ١٩١٧ و ١٩٤٨، شكل معركة مفتوحة. أخذ المبدأ الأول، كما الثاني، شكل سيرورة متوالدة، فقد استقرّت إسرائيل كدولة ولم يستقر اليهود، بقوا مشدودين إلى "استنفار" لا يمكن التحرر منه. واستقر الفلسطينيون كلاجئين وظلوا فلسطينيين، وذلك في معركة بعيدة عن النصر والهزيمة في آن. ولعل النجاح الذي ينطوي على الإخفاق، كما الهزيمة التي تتضمن الانتصار، أعاد صياغة الفلسطينيين وطالب بمراجعة المشروع الصهيوني أكثر من مرة: "لا القوة انتصرت ولا العدل الشريد"، كان يقول محمود درويش، مشيراً إلى ماضٍ واضح وأفق متعدد الاحتمالات.

ترجم الفلسطينيون في مسارهم مقولات ثلاث: السيرورة التي تنكر الوقائع النهائية، فلا الحلم الصهيوني

الرومانسي احتفظ بقوته ولا الفلسطينيين انتهوا إلى التبدد. بل أن هذه السيرورة التي لها تعرجاتها المتعددة، هي التي أقامت علاقة بين مخيمات ١٩٤٨، التي آوت "منكوبين" يثيرون الشفقة و "السلطة الفلسطينية" القائمة التي تستمد آفاقها من ديمومة المسألة الفلسطينية لا من إمكانياتها الراهنة. والمقولة الثانية حضور الاسم الفلسطيني الذي لم يقتلع ولا يمكن اقتلاعه. فمع أن الفلسطينيين في صراعهم الطويل مع تنين متعدد الرؤوس لم يحسموا "معركة حقوقهم"، فما زالوا يقاتلون الإنكار ويطالبون بالاعتراف، فقد حسموا "معركة وجودهم"، فلا أحد اليوم يجهل معنى اسمهم ولا قضية المكان الذي شهد معركة الإنكار الأولى، ولا الحضور الهائل الذي بثّه الفعل الفلسطيني، في مساره المتعرّج والمليء بالشقوق والثغرات. والمقولة الثالثة هي :الاختبار الذي سقط ثقيلاً على أرواح الفلسطينيين وأجسادهم وأقدارهم وشدهم، أحياناً إلى مواقع يختلط فيها الموت بالحياة، خرجوا منها بصبر وتحمّل أقرب إلى المعجزة. فمن "المخيم" الذي كاد أن يصبح هوية فلسطينية، تخرّج تلاميذ وأساتذة وأطباء وحتى في حال مخيم تلاشى، فلم يحصل ذلك إلا بعد معركة، عنوانها الأكثر بلاغة: "حصار المخيمات"، الذي أصبح وجهاً من وجوه الإرث الكفاحي الفلسطيني.

أمران جديران بالانتباه في الوطنية الفلسطينية: قوة الاسم، فالفلسطيني يسير مع اسمه، والمخيمات يسبقها نعتها الفلسطيني قبل أن تسقط عليها القذائف، والمبدعون يكتبون عن فلسطين لا عن هواجسهم الذاتية، والعجائز يسردن حكايات عن قراهن البعيدة،... تأتي قوة الاسم من الفلسطيني الذي يتشبّث به، حيث الاسم هوية وثقافة وتاريخ وقضية، وكل ما يساوي الفلسطيني بأصله، فلولا الفعل الفلسطيني المتجدد لما كانت هناك فلسطين ولاختصر الأمر كله إلى "إسرائيل وإلى لاجئ تقاضى اليوم تعويضاً عن أرضه. أما الأمر الثاني فيمس مكوّنات الوطنية في علاقتها بعنصر هو : المأساة، الذي استظهر في انزياح حياة الفلسطيني عن غيره من البشر، وفي تصميم الفلسطيني على تجاوز اغترابه متوسلاً قوة الروح والرغبة في التحقق.

يستطيع العقل ، محايداً كان أو متبرّئاً من الحياد، أن يقرأ الوطنية الفلسطينية في المواجهة المفتوحة، رغم لا تكافؤ القوى، بين أيديولوجيا إنكار وجود الفلسطينيين، المزودة دائماً بأكثر من سلاح، والفعل الفلسطيني المدافع عن الذات. ويستطيع أن يقرأها في المقارنة بين "مذكرة لورانس" وكتاب الباحثة الأمريكية جوان بيترز" منذ زمن سحيق". فما قالته الباحثة، في مطلع ثمانينات القرن الماضي (١٩٨٤)، لا يختلف من حيث الوظيفة، عما قال به لورنس عام ١٩١٥، كما لو كان التسويغ الزائف بحاجة إلى تسويغات متتالية كي لا يقع. أراد الكتاب أن يكون "دفاعاً حاسماً عن المطلب اليهودي العادل في فلسطين وسرداً عميقاً لقصة إنسانية". مدعماً بمعرفة "أرشيفية" ثقيلة.

اتكأ لورانس، وهو يخترع فلسطين ويفرغها من أهلها، على "قوة الإمبراطورية" التي ترسم مصائر الشعوب، واعتمدت جوان بيترز على وحدة المعرفة والقوة وهالة "الأكاديميين" والأساتذة الأمريكيين،

وآلة إعلامية صهيونية متنفذة توزّع الجوائز والألقاب. إن ما دافع عنه الأول، قبل نشوء "الوطن القومي اليهودي"، دافعت عنه الثانية بعد ترحيل الفلسطينيين عن وطنهم، وإن كان الأول قد اكتفى بجمل سريعة في "مذكرة"، بينما لجأت الثانية إلى كتاب واسع الصفحات حظى بجائزة من المراجع "العلمية اليهودية". واللافت للنظر، الذي يضيء استمرارية الوطنية الفلسطينية، لا يتجلى، فقط، في ضرورة تسويغ جديدة لـ "الحقيقة الصهيونية"، بل بالاحتفاء الأكاديمي الواسع بكتاب أيديولوجي يقترب من الابتذال، كما جاء في كتاب المؤرخ اليهودي نورمان ج. فنكليستاين "صورة وواقع النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني". فقد حظي الكتاب بمراجعات متعددة لم يحظ غيره بها، ومنع نشر الردود العادلة عليه، وهو ما أشار إليه إدوارد سعيد في دراسته "لوم الضحية"، الأمر الذي أجبره مع غيره (ومنهم تشومسكي) على نشر ردودهم خارج الولايات المتحدة.

أما أطروحة بيترز الأساسية فتقوم على الأطروحة التالية: إن سكان فلسطين "الأصليين" زعم يمكن دحضه بالوسائل العلمية، فما كان هناك إبان وعد بلفور عرب تسللوا من المناطق العربية المجاورة، سعياً إلى العمل في المزارع اليهودية المزدهرة. بل أن عددهم، الذي ينوس بين ٦٠٠ ـ ٧٠٠ ألف نسمة يساوي، تقريباً، عدد العرب الذين تركوا البلاد عام ١٩٤٨، أي أن الصهاينة لم يهجّروا أحداً، وأن العرب الذين كانوا قبل ولادة "الدولة" عادوا إلى بلادهم بعد ولادتها. ومع أن في الأطروحة ابتذالاً أيديولوجياً منهجياً، فهي تدفع إلى بعض الأسئلة السريعة: من هم السكان الذين قاتلوا القائد المصري إبراهيم باشا، في زمن السيطرة العثمانية، وأجبروه على الخروج؟ وما الذي أجبر عمالاً عرباً فقراء أن يخاطروا بحياتهم في معارك ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ التي ألحقت الأذى بـ ١٧٪ من مجموع "العرب"؟ ولماذا لم يرجع بعض "العرب" إلى بلادهم، بعد ١٩٤٨، وارتضوا أن يبقوا في الناصرة وقرى الجليل؟ وما هي هوية "السكان" الذين حاورتهم إسرائيل بعد الانتفاضة الأولى ١٩٨٧؟ تشير هذه الأسئلة البسيطة إلى التزوير الأيديولوجي الصهيوني، الذي لا يمليه "الطبع الكاره للحقيقة"، بقدر ما تفرضه دينامية الفعل الوطني الفلسطيني في مواجهة "آخر" يحجب الزيف بالقوة، ويتعامل مع الفلسطينيين بصيغة الإنكار والاعتراف في آن: ينكر وجودهم فهم متسللون ولا حق لهم في فلسطين، ويعترف بوجودهم ليبرر اقتلاعهم بأسلحة متنوعة.

فعلى خلاف قادة صهاينة لم يروا فرقاً بين الأفاعي والفلسطينيين، اعترف جابوتنسكي بأن لهم "بصيرة تخبرهم بالخطر الصهيوني المحدّق بهم وتقودهم إلى الدفاع عن أرضهم دفاعاً صبوراً". أقرّ بن غوريون "أن الخلاف بين العرب واليهود ولا يمكن تجاوزه في الحاضر ولا في المستقبل المرئي وأن العرب لا يتخلون عن أرضهم بسهولة ". ومثلما اخترع لورانس مدينة القدس وصيّرها إلى بقعة فارغة قابلة للإيجار، اخترع الخطاب الصهيوني الفلسطيني مرتين: مرة أولى محت وجودهم عن أرضهم ومرة ثانية نزعت منهم حس الوطنية وزرعت فيهم استعداداً واسعاً للرحيل. نقض الفلسطينيون في وجودهم اليومي الاختراع

المزدوج، وأجبروا الخطاب الصهيوني على مراجعة ذاته أكثر من مرة. ففي السادس عشر من حزيران عام ١٩٤٨ أعلن وزير الخارجية موشيه شاريت فرحاً: "إنني مندهش من العرب الذين اختفوا من قطاع كامل من البلاد"، بل أنه "اندهش من رحيل العرب السريع أكثر من اندهاشه من تأسيس الدولة اليهودية". غير أن أعمال المؤرخ الإسرائيلي بني موريس، بعد أربعين عاماً على ولادة إسرائيل، كشفت عن خرافة "الرحيل المدهش"، الذي جاء ، فعليا، من الخوف والإكراه وممارسة المجازر، كما أظهر في كتابه "ولادة مسألة اللجوء الفلسطيني ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩".

وإذا كان الإنكار والاعتراف، في التصوّر الإسرائيلي، ينتهيان إلى نتيجة ثابتة، إذ الإنكار ينفتح على مصادرة الأرض وتهديم القرى وإذ الاعتراف كلام إعلاني لا يغيّر من الوقائع شيئاً، فإن السياق العربي المتدهور، في عام قيام دولة إسرائيل وقبله، لم يكن بعيداً بدوره عن ثنائية الإنكار والاعتراف، في التصوّر الإسرائيلي، فقد ارتاح إلى عمومية : "فلسطين شأن عربي"، التي تعترف بالفلسطينيين ولا تعترف بهم في آن، ما دام أمرهم يحسمه العرب ، وما دامت ساعة الحسم محتجبة في المشيئة العربية "الجامعة". لذا قال بن غوريون في نيسان ١٩٣٦، وهو يحاور المثقف الفلسطيني جورج أنطونيوس: "إن فلسطين لا وجود لها بالنسبة لليهود، ولا وجود لها أيضاً بالنسبة للعرب لأنهم يقترحون الاندماج بسوريا". يوقظ القول دهشة لا تقل عن دهشة "شاريت" وهو يتأمل "اختفاء الفلسطينيين"، ففلسطين بالنسبة لليهود هي إسرائيل، وفلسطين بالنسبة للعرب ليست فلسطين، فهي مجرّد امتداد سوري، ينوس الوجود الفلسطيني، والحالة هذه، بين إنكار مزدوج، تاركاً الفلسطينيين يعتصمون بجلودهم ويسألون، بغضب وارتباك، عن الفرق الفعلي بين العقيد السوري حسني الزعيم، الذي قاد انقلاباً "ليثأر للفلسطينيين، ووزير الخارجية الإسرائيلي موشيه شاريت، الذي استقبله السيد العقيد في المهاجرين في دمشق، أكثر من مرة.

أفضى الغبن الواسع الذي وقع على "اللاجئين" إلى هوية فلسطينية تختصر المسافة بين الفردي والجماعي، فما يصيب طرفاً تستشعره "الجماعة" ويستعيد، لزوماً، صورة فلسطيني قبل الرحيل، ويذكر "المجموع"، في المنفى والوطن المصادر، بفرادة الظلم وتهافت المعنى، في أكثر من اتجاه. علمت الفرادة المؤسية الفلسطيني أن يعترف بذاته، قبل أن يلتمس اعتراف الآخرين، وأن يجاور "بداهة الحق"، التي عليها الانتظار طويلاً، لتنصف "المقهورين".

أنجز الفلسطينيون اعترافهم بذاتهم حين كشفوا عن أكاذيب موشيه شاريت وسخروا، سريعاً، من أكاذيب عسكري عربي مبتذل. برهنوا، في الحالين، أن القوة لا تبني حقيقة دائمة، وأن "صغار العرب" يحولون القضايا الكبيرة إلى تجارات صغيرة.

٢. في وطنية التجربة:

يضع بعض المؤرخين بدايات الوطنية الفلسطينية في حرب الفلسطينيين ضد الحملة العسكرية المصرية، التي قادها إبراهيم باشا عام ١٨٣٢، وأنزل بها أهل فلسطين هزيمة ساحقة. انخرطت في هذه الحرب، التي أجهضت أحلام محمد علي باشا، مكونات المجتمع كله والفلاحون منها بخاصة. أما المرحلة الثانية، التي عزّزت البدايات وأمدتها بأبعاد جديدة، فتمثّلت بالثورة الكبرى، التي غطت ثلاثينات القرن اللاحق، وهمش فيها الفلاحون غيرهم، واستولدت وعياً جماعياً له شكل الهوية، إذ قاتل الفلسطيني بأدوات فلسطينية من أجل أهداف وطنية خالصة. وجاءت المرحلة الثالثة، في ظروف مغايرة، مع انتفاضة ١٩٨٧، التي قصدت الاستقلال وأذابت "القيادات المقترحة" في وحدة شعبية عضوية تفيض على التنظيمات والأيديولوجيات المختلفة.

دارت هذه المعارك التي تبادلت أطيافاً ورموزاً مشتركة، فوق أرض فلسطين وأفضت إلى نتائج غير متساوية، فانتصرت الأولى، لم يكن المشروع الصهيوني هناك، وهزمت الثانية، ولم تكتمل الثالثة وانفتحت على حسابات خاطئة. ومع أن في هذه المعارك عناصر مخفقة ومنتصرة، في آن، فإن الوطنية الفلسطينية من حيث هي وطنية ذات شكل خاص، جاءت مع عام ١٩٤٨، الذي شكّل حداً فاصلاً بين ما كانه الفلسطيني وما سيكونه، ذلك أنه لن يعود كما كان أبداً.

حملت هزيمة ١٩٤٨ معها بعدين وافدين كاملي الجدة: يدور أحدهما في مجال الاسم، الذي عيّن الفلسطيني لاجئاً، وتصادى ثانيهما في حقل التجربة، الذي أدخل الفلسطيني في اختبار لم يعرفه وأطاح ببداهات كثيرة. أعطى الاسم، الذي لم يعرفه الفلسطيني سابقاً، الأخير ولادة جديدة، ذلك أن في الاسم خلقاً وفي الذي فرض الاسم خالقاً، وفي الذي وقع عليه الاسم مخلوقاً، ينصاع إلى مشيئة الذي سمّاه. ولم يكن المسمّي إلا "النكبة"، التي قذفت بالمنكوب إلى الجهات التي تشاء. ولأن على المنكوب، أي اللاجئ، أن يعيش دلالة اسمه، كان على الفلسطيني أن يختبر حياة جديدة، وأن يشتق وعيه الوطني من مرجع مادي واضح المعالم عنوانه: وطنية التجربة، التي لا تستوعبها "نظريات السياسة التقليدية".

فعلى صعيد المكان خرج الفلسطيني من بيته ودخل إلى: المخيم، المكان القلق الإقامة، إن لم يكن إقامة في اللاإقامة، تقوم علو هوامش المدن وتتبدى لها "عورة" يجب حجبها، ففيها ما تنفر منه عيون أهل المدن. ولأن المخيم أشبه بمكان زائد أقرب إلى النسيان، تكون له شبه حياة، لا يرحمها الصيف ولا يشفق عليه الشتاء، ويكون له إنسانه الهامشي الممنوع من الأحلام، فالذهاب إلى الأحلام السعيدة يحتاج إلى إقامة مستقرة. أنطق غسان كنفاني في روايته "أم سعد" المرأة الفلسطينية الصامدة بتعبير : "حياة شحار"، محاصرة بالوحل والغبار والنظرات المهينة. يكتمل المكان الذي سويّ على عجل بـ "وكالة الغوث"، الأقرب إلى جمعية خيرة ضعيفة الذاكرة، تمدّ اللاجئين بـ "كرت الإعاشة"، الذي يبرهن عن نقص اللاجئ، عالة هو أو منكوب لا يحسن العمل،

وتوزعهم على صفوف ذليلة طويلة وتوزع عليهم ثياباً تشبه الثياب، تغطيهم بهوان حقيقي.

يفقد "المنكوب" في الوضع الجديد اسمه، ما دام لاجئاً من لاجئين يشاطرونه "كرت الإعاشة"، أو "فلسطينياً" ينتمي إلى أرض أُخرج أهلها من ديارهم وانتشروا "ضيوفاً لا يعرفون لأصول الضيافة". واللاجئ عند غيره لا اسم له ، فهو مجرّد نعت سلبي أو صفة تثير الشبهة. عبّر حسين البرغوثي في كتابه "الضوء الأزرق" عن اختصار الفلسطينيين جميعاً إلى "صفة تثير شبهة" على لسان "صاحب المكان الأصلي" الذي قال: "في تلك البناية في واحد فلسطيني". لم يكن الفلسطيني، الذي يتعرّف بمكان طرد منه، إلا غسان كنفاني، الذي حوّله اللجوء إلى "مجهول من مجاهيل"، لهم طعم النشاز، أضافته الصدفة إلى بشر لهم أسماؤهم، ولا يرغبون بالتعرّف على الغرباء. وعبّرت سميرة عزام بنبرة أشد حرقة في قصة قصيرة، عن الفلسطيني "الذي يهرب من اسمه، ويعتقد أن شراء "هوية لبنانية" ينقله من عالم "المشوهين" إلى عالم الأسوياء. رسم البرغوثي لاجئاً لا يمكن الاعتراف به، وتأملت سميرة عزام لاجئاً لا يريد أن يعترف بذاته لأن غيره لا يعترف به، ثم عاد إلى نفسه.

تعود مرة أخرى قضية الفلسطيني مع الإنكار والكفاح من أجل الاعتراف ، وذلك في شرط عربي يعرف فلسطين ولا يتعرّف، دائماً، على الفلسطينيين، كما لو كان يعترف بالمجردات الممتدة من فلسطين إلى المسجد الأقصى رافضاً مساواة المجردات المقدسة بفلسطينيين تكسو وجوههم غرابة ما. اختبر اللاجئون في المجال العربي، الذي اختصره الزمن الحديث إلى سلطاته، دلالة "القومية" التي استهلكت في الحديث عن فلسطين مداداً غزيراً، واختبروا "وحدة المؤمنين": الذين وعدوا اللاجئين بـ "نصر مبين" بـ "بلاغات مجردة". عطف "القوميون والمؤمنون" "فلسطين المحرّرة على مستقبل غير قابل للتعيين.

أدخل المنفى اللاجئ إلى تجارب لم يكن يتوقعها، واستمر في الحياة واللجوء، ووصل إلى : وطنية التجربة.

في وطنية التجربة قابل الفلسطينيون مبدأ "حقوق الإنسان"، القائل بتساوي البشر وأخبر الفلسطينيين أن بعض البشر أكثر جدارة بالمساواة من بعض آخر، وعلمتهم البلاغة القومية، وهي سلطوية بالتأكيد، الفرق بين الممارسة العارية ولغة لا رصيد لها ، وأدركوا الفرق، على مستوى المعاينة، بين الإيمان الذي يحض على التضامن والتكافل ، و"الدين ـ الإيديويولوجيا"، الذي هو أحد عناصر الخطاب السلطوي. وضعت وطنية التجربة "اللاجئين" بين المضطهدين، الذين يتعرّفون بنمط حياتهم، وأدرجتهم في شعب عربي مضطهد له "قومية أخرى"، ورأوا مسلمين ليس لهم إسلام بصيغة المفرد. أسبغ التخلي ، في وجوهه المتنوعة، على الغربة الفلسطينية طابعاً وجودياً، وأثقل على الفلسطينيين بأسئلة معقدة، لا يزالون يبحثون عن إجاباتها حتى اليوم.

تكاثر الاختبار وبقي الفلسطينيون مع "نكبتهم"، دون أن يتم الاعتراف،دائماً، بكيانهم الإنساني، الباحث عن العمل وحرية الحركة، وبقضيتهم الوطنية في معناها السياسي. ذلك أن المسألة الفلسطينية، منذ

أكثر من ستين عاماً، تحيل على السياسة وعلى حرية الفلسطينيين في العمل السياسي، قبل أن تحيل على إنسانية مجردة واحترام بلاغي للمقدسات.

وواقع الأمر أن الخطاب السلطوي العربي، الذي اعتاش طويلاً على البلاغة، عظم القدس ونهى عن التصرف "السياسي" بمستقبلها ونهى الفلسطينيين، في الوقت ذاته، عن العمل في السياسة، وذلك في مفارقة ساخرة، تقول بتحرير فلسطين وتقيّد الفلسطينيين إلى نكبتهم.

أراد النظر السلطوي العربي "فلسطينياً طيباً" لا يلوث نفسه بالسياسة، حفاظاً على استقراره وتأمين شؤون عائلته، ودُفع إلى خيارين: الحياد السلبي الذي يقصيه عن السياسة، من حيث هي فعل سيئ السمعة لا يحترم "أصول الضيافة"، أو الانصياع إلى أوامر السلطة والالتحاق بإراداتها. سيق الفلسطيني، في الحالين، إلى دائرة الاتهام، فمصلحته من مصالح العرب جميعاً، قبل أن تكون ذاتية ضيقة، وتحتاج إلى موقف "عربي عام" يضع رأي "الجماعة" فوق اجتهادات اللاجئين.

يثير الخطاب السلطوي، الذي "يقدّس" فلسطين ويطلب من الفلسطنيين الحياد السياسي سؤالين: إذا كانت المسألة الفلسطينية سياسية بامتياز، فكيف يكون اللاجئ فلسطينياً إذا حرر نفسه من قضيته الوطنية؟ يحيل الجواب على القهر الموسع الذي رمى به المنفى على لاجئ يريد استعادة حقه. والسؤال الثاني: إذ العمل السياسي اليومي وسيلة توحيد الفلسطينيين وتنظيمهم، فكيف يتواصل الفلسطينيون وينظمون جهودهم إن كانت السياسة فعلاً سيء السمعة يسيء إلى استقرار البلد المضيف؟ ينتهي الجواب إلى توطيد المنفى وإبقاء اللاجئين في بؤس اللجوء، وإقناعهم أن فضائلهم ماثلة في "صبرهم" وصمتهم وثقتهم في المراجع العالية والعلمية التي تسهر على مصالحهم. إن العمل في السياسة يفتح نظر الفلسطينيين على وجوه العالم الذي يعيشون فيه والخاضع إلى قوى كبيرة وصغيرة وحروب وأمبرياليات وتحالفات ومصالح ساهمت في توليد مأساتهم، كما لو كان عزلهم عن السياسة طريقاً إلى نسيان مهين، يستبقي الوجود الإسرائيلي ويترك الفلسطينيين في عراء المنفى. من الطريف أن تسفيه السياسة، كما الاحتفاء بالحياد والصمت السياسيين، كان عملة رائجة لدى "البيض العنصرين" المناهضين لحقوق "السود" المدنية في الولايات المتحدة، حيث الأسود الطيب لا ينتسب إلى الأحزاب والجمعيات المدنية، بينما الأسود الخبيث هو المطالب بمساواته مع غيره. ولعل الموقف السلطوي، الذي يعترف بفلسطين ولا يعترف بالفلسطينيين كبشر لهم الحق في الدفاع عن قضيتهم والتصرف بها، هو الذي أعطى الفلسطينيين ، في شروط معينة في العالم العربي،صفة: "الطائفة الشريرة"، التي تتدخل في شؤون غيرها وتؤذي "الطوائف الأخرى". سوغت هذه الصفة إنزال "عقاب جماعي" بالفلسطينيين أكثر من مرة"، كأن يرمي معمر القذافي بالفلسطينيين على الحدود الصحراوية، لأنه رأى في "اتفاق أوسلو" استسلاماً، أو أن يجتهد "الإعلام الساداتي" بتلطيخ سمعة الفلسطينيين ومنظمة التحرير، ...

عاش الفلسطينيون وطنية التجربة وهم يعايشون، أكثر من ستين عاماً، تحولات النظام العربي الرسمي الذي اعتبر، في فترة من مساره، أن فلسطين قضية الشعوب العربية واعتبرها لاحقاً، قضية الأنظمة العربية، التي تحتكر حقوق الكلام والتصرف وتقرير المصير.. والمحصلة عدم اعتراف النظم بشعوبها وإنكار حق الفلسطينيين بالتصرف بقضيتهم. وبقدر ما عاش الفلسطينيون تحولات النظم العربية، بأشكال لا متكافئة، عاشوا التكون اليومي لهوية مختلفة، تربط الوطن بالكرامة، وتقيم بين المنفى والاغتراب والدفاع الصعب عن الذات علاقة لا تخطئها العين.

غاص الفلسطينيون في وطنية التجربة، وهي الطور الثالث من الوطنية الفلسطينية، الذي حمل معه أكثر من اختبار، ارتبط ذلك بتحصيل الرغيف واكتساب التعليم أم بإنسان ممنوع من السفر ولا حق له في الإقامة. بيد أن الوجه الأكثر صعوبة تمثل في مصادرة حق الفعل والكلام، إذ في الكلام صورة عن الفكر والروح والرغبة وإنسانية الإنسان، وإذ في الفعل اندماج في الحياة ومساهمة في صنعها ورفض للموت.فلا إنسان جدير باسمه بمعزل عن حقه في الفعل والكلام، "في البدء كانت الكلمة" يقول البعض، وفي "البدء كان الفعل" يقول بعض آخر، والموت وحده لا يحتاج إلى الفعل والكلمة. ولهذا لم يكن اندفاع الشباب الفلسطيني، بعد ظهور منظمة التحرير، طريقاً إلى استعادة الوطن فقط، بل كان له وجوه أخرى متعددة.

وحد الفدائي الذي صعد مع منظمة التحرير في ستينات القرن الماضي، في ذاته بين الفعل والكلام، وواجه الموت مدافعاً عن الحياة، وتصرّف بإرادته ومنع غيره من التصرف بها، ومارس جماعية العمل الفلسطيني، وأخبر عن معنى التمرّد والالتزام والوعي الذي يبحث عن ذاته... كان في روحه إنسان مشتهى يعبر الحدود ويسخر من الوجوه الرسمية، مدركاً أن بؤس المخيم لا هو بداية للعالم ولا نهاية له. وكان في روحه فلسطيني مغترب، يعرف بشاعة اللجوء والعبث بالأسماء ويحفظ اسم فلسطين، وكان يفرح بالطريق إلى فلسطين مساوياً بين الطريق الطليق والوطن.

لا شيء غريب عن المنفى الفلسطيني الطويل، أكان ذلك داخل البلاد أم خارجها، بدءاً بالاحباط والانتظار وانتزاع الملكية واقتناص الرغيف والوجود الإنساني الأقل وحقوق الإنسان الزائفة، مروراً بالعقاب الجماعي ومتواليات المجازر والتناثر القهري في هذا العالم، ناهيك عن الاتجار بقضية نبيلة أتقنه أشباه الحكام وتجّار الإيديولوجيات، وارتاح له "وعي فلسطيني فقير".... يظن أن إكثار الكلام عن تحرير فلسطين يسترجعها كاملة.

وعن هذا الشيء الذي جاء به منفى متعدد الوجوه والأبعاد، صدر وعي تلقائي دائب الحركة عاشت به القضية الفلسطينية يدعى: وطنية التجربة، التي هي جملة وقائع حياتية وإنسانية ووطنية، احتضنت الماضي وساءلت الحاضر، وأشارت إلى ما يريد الفلسطيني أن يصل إليه في مستقبل محتمل. ولهذا فإن الثقافة الفلسطينية، في معناها العميق، لم تصدر عن ثنائية القراءة والكتابة، في "مدارس عربية"، تذكر

الوقائع ناقصة، إنما جاءت من سجال حي، له مذاق الدم، بين: الوعي والوقائع الحياتية. ففي وقائع الحياة ما ينقد الوعي ويصوّب أسئلته، ومن وقائع الحياة تأتي وقائع ثقافية، تشتق الفلسطيني من خبرته وحصاره ومعاناته، قبل أن تسبغ عليه "صفات تضامن عربي"، لم يمارس العروبة، كما وعاها الفلسطيني، ولا يزال.

٣ـ بين الوطنية العفوية والوطنية الواعية

"الذي يطارده التنين يصبح تنيناً بدوره". لم يكن بإمكان الفلسطينيين أن يحاكوا الخطر الذي يطاردهم، وفقاً لما قال به الفيلسوف الألماني نيتشه، الذي اعجب به خليل السكاكيني ذات مرة. فقد طاردهم التنين وردوا عليه مقيدين إلى وطنية عفوية دائمة التحول أسهم فيها المثقفون، بلا تأخير، وبأشكال مختلفة. والنموذج الذي يتداوله المؤرخون رسالة يوسف ضياء باشا الخالدي، الذي بعث بها، عام ١٨٩٩، إلى تسادوك كاهان، الخاحام الأول في فرنسا وصديق هيرتسل. جاء فيها إن "الفكرة الصهيونية طبيعية، لائقة، وصادقة تماماً، من يستطيع أن يطعن في حق اليهود بفلسطين؟ .... إلا أ نه لا بدّ من الأخذ في الاعتبار "القوة الصادمة للواقع: فلسطين هي جزء لا يتجزأ من السلطنة العثمانية، وهي مأهولة بغير اليهود، ...، بالله عليكم دَعوا فلسطين مأهولة تعيش بهدوء".

لم ينكر الخالدي "حق اليهود التاريخي" في الإقامة في فلسطين، مقابل الاعتراف بحقائق تاريخية أخرى، ففلسطين مأهولة بغير اليهود... ومع أن النبرة هادئة متسامحة حاكمها الاعتراف المتبادل بالعيش العادل، فهي مشبعة بالاحتجاج والإنذار، لان في عدم الاعتراف ما ينتزع الهدوء من فلسطين ويدفع بها إلى طريق الآلام. والمقصود بفلسطين هم الفلسطينيون، الذين رأوا في الفكرة الصهيونية "المتطرفة" ما يجافي الواقع ويصدم العقل والشعور معاً. اعاد هذه الفكرة بوضوح أوسع، عام ١٩١١، محمد روحي الخالدي في مخطوطة كتابه "تاريخ الصهيونية" الذي مايز، في دراسة تاريخية بالغة التوثيق، بين اليهودية والصهيونية، وأوضح أن الهدف الصهيوني إقامة دولة يهودية في فلسطين. وأضاء أسعاف النشاشيبي الخطر بشكل آخر، في العام نفسه، بكتابه "الساحر واليهودي"" كاشفاً عن الغايات الصهيونية الأخيرة. في هذه الكتابات وما يشبهها، وهي كثيرة، أضاف المثقفون إلى الوطنية العفوية المنتشرة في فلسطين كلها وطنية واعية بالأخطار الصهيونية القائمة والقادمة وواعية أيضاً، بالفرق بين إمكانيات "الأنا" وإمكانيات الآخر، وهو ما توقف أمامه روحي الخالدي بأسف يتاخم حدود الأسى. من اللافت في هذا المجال الولادة المبكرة للمثقف الفلسطيني الحديث، على مبعدة نسبية من الكاتب السلطاني الذي لا ينفتح على الشأن العام، دليلاً على متابعة الأول لما يجري في وطنه، وعلى دور ريادي في قراءة الحاضر والنظر إلى المستقبل. ولهذا يبدو ما قال به السكاكيني، في نقده للحياة الاجتماعية في فلسطين، استمراراً لما توقف أمامه روحي الخالدي، بقدر ما يبدو هذان المثقفان مرآة لمثقف نقدي حديث سابق لزمنه العربي. بل أن في

"رؤيا" هذين المثقفين، كما غيرهما، إعلاناً عن خصوصية الوطنية الفلسطينية الواعية لخطر، لا يستشعره إلا الذين يعيشون فوق أرض فلسطين، وهو ما فات مثقفاً مصرياً نبيهاً مثل محمد حسين هيكل، الذي أوحى في كتابه "مذكرات الشباب" ـ ١٩٢٨ أنه لا يعرف عن معنى الصهيونية شيئاً، إضافة إلى صحف مصرية شهيرة ، ليس آخرها جريدة الأهرام، التي هاجمها، مرة، نجيب نصار هجوماً عنيفاً.

أسهمت العلاقة، التي لها شكل القاعدة، بين المثقف والقضايا الاجتماعية والوطنية في توليد صحافة وطنية "فاعلة". فبعد ثورة "تركيا الفتاة" تأسست أربع صحف فلسطينية واضحة الخصوصية، اتخذّت من الخطر الصهيوني موضوعاً أساسياً لها: ففي عام ١٩٠٨ أسس حنا عبد الله العيسى صحيفة "الأصمعي"، ونجيب نصار صحفية "الكرمل"، وفي سنة ١٩١٢ أسس سعيد جار الله صحيفة "المنادي" وعيسى العيسى صحيفة "فلسطين" التي تولى تحريرها يوسف العيسى. يشير اسما الصحيفتين الثانية والرابعة إلى الهدف الأساسي من ظهورهما.

جمعت هذه الصحف بين السياسي والثقافي، وبين الوطني والقومي، بل أن نجيب نصار سعى إلى التنسيق بين الصحافة العربية المعادية للصهيونية، ووجه نقداً إلى صحف مصرية "تهادن" الصهيونية وتمالؤها، وندّد بمثقفين "متشاطرين" متصالحين مع الاستعمار البريطاني والأجهزة الصهيونية، حال الشاعر العراقي معروف الرصافي...

لعبت الصحف دوراً مركزياً في مقاومة الصهيونية، أكان ذلك في فلسطين أم في الأوساط العربية خارج فلسطين، وامتد تأثيرها إلى بيروت أو القاهرة وباريس ودمشق، بل إلى مسافة أبعد، إذ أنشأ المهاجرون العرب السوريون في نيويورك صحيفة "مرآة العرب" عام ١٩١٠. بيد أن كل ذلك لم يكن ممكناً ، بمعزل عن فاعلية الصحافة الفلسطينية، وهو ما يشير إليه المؤرخ الإسرائيلي يوسف لمدان في كتابه "العرب والصهيونية" (١٨٨٢ ـ١٩١٤).

تميزّت تلك الصحف بأولوية الوظيفة على المهنة، وتعرض المشرفون عليها إلى المطاردة، و"الحكم بالإعدام"، وهو ما كان من نصيب نجيب نصار، الذي أقلق الصهيونية بنشاطه الإعلامي، فاشتكته إلى المراجع العثمانية العليا وإلى المركز البابوي في روما. قدّم نصار درساً في تكامل العمل الصحفي الوطني، فاهتم بمضوع الشباب والزراعة وبناء الاقتصاد الوطني، وصولاً إلى هاجسه الأساسي المتمثل بـ "البيوع"، الذي قصد به عرباً يبيعون أرضهم لليهود. تضمن وعي المثقفين الفلسطينيين بالخطر الصهيوني بعدين متكاملين: فهو وعي مبكر، سبق وعد بلفور وصعود الهجرة اليهودية إلى فلسطين، كأن يؤكد حافظ بك السعيد، ممثل يافا في البرلمان العثماني في أيار ١٩٠٩: "إذا لم تقم الحكومة بأي عمل ضد خطر هجرة الصهيونيين، فانه من الممكن قطعاً أن ينتزع المستوطنون الجدد لأيديهم نصيب الأسد من التجارة والأراضي في فلسطين، وأن يفوقوا بعددهم السكان المحليين، الذين تسعة أعشارهم لا يعرفون ما هو العلم والتعليم...". وقال أحمد العارف (والد عارف العارف)، الذي فاز في انتخابات ١٩١٢، لمحرر "الإقدام": "موضوع أحاديث سكان

فلسطين الوحيد حالياً.... هو مسألة الصهيونية. الجميع يخشاها ويخافها، والمسألة الصهيونية، وإن كانت في الظاهر اقتصادية إلا انها في الحقيقة سياسية هامة.... والحكومة تنظر إلى الصهيونية على أنها مسألة اقتصادية. إلا أنه ما من شك في أنها عاجلاً أم آجلاً، تتأكد أن المسألة سياسية هامة..."

تخبر الدراسات المتاحة، الخاصة بعلاقة المثقفين بالقضية الوطنية، عن وعي مبكر وتكشف، في اللحظة عينها، وهنا البعد الثاني، عن وضوح لا ارتباك فيه، إلا لدى قلة منعزلة عن الواقع ومنغمسة في حسابات الأعيان. وبداهة، فإن ذلك الوضوح، لم يكن خصيصة من خصائص المثقفين، نظراً لتملكهم عمليتي القراءة والكتابة، فما بعث عليه صدر عن استشعار شديد بالخطر، مرجعه حضور يهودي لا يكف عن التكاثر، تقتفي آثاره العين المباشرة ، قبل أن يتحول إلى أسئلة وطنية ملحة. وبسبب هذا الاستشعار، الذي يحيل على الأرض والاستقرارالموروث، وحدت "الوطنية العفوية" بين المثقفين وفقراء الفلاحين الأميين، الذين أدركوا، قبل غيرهم، أن الصهيونية حركة سياسية، تستهدف اغتصاب الأرض، لا مجرد وجود "بشري ـ اقتصادي". ولعل الوعي العفوي، الذي يعززه تهديد معيش، هو الذي جعل تصورات الفلاحين الأميين، كما جاء في بعض الوثائق، أكثر دقة ونفاذاً من تصورات وجهاء يعرفون القراءة والكتابة، ويتخذون من "السياسة" مهنة. وهو الذي كان يدفع بالفلاحين إلى التعريض بالذين يبيعون أرضهم والتعرَض لهم في الطرقات والأماكن العامة. يذكر في هذا المجال أن الصحف الفلسطينية كانت تصل إلى "القرى"، حيث يتجمهر الفلاحون، الذين لا يعرفون القراءة إلا صدفة، حول القارئ الوحيد لديهم، أو حول عابر سبيل يحسن القراءة.

في "الوطنية العفوية"، ما يستدعي مصطلح "عضوية الوعي الوطني الفلسطيني"، إن صح القول، من حيث هو وعي جماعي توزع على المجتمع كله بأقساط مختلفة، واحتضن الفلاحين والمثقفين، ولامس المرأة في بعض نماذجها وامتد إلى الشباب المتعلم الذين أرادوا "مبادرات شبابية" لا توائم "المجتمع الأبوي"، ولا تنال موافقة الانتداب البريطاني، الذي ربط بين التعليم و"الوعي اليومي المحايد"، إذ القراءة والكتابة فعلان يعطيان "وظيفة مضمونة"، ولا ينشغلان بالقضايا الوطنية والسياسية.

أعطى عادل حسن غنيم، في كتابه "الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ إلى ١٩٣٦" معلومات واسعة عن الدور الوطني للشباب الفلسطيني، أضاءت الأسباب التي عوقت حركته في البداية، وتلك التي دفعت بدوره إلى التزايد في فترة لاحقة. نقرأ في كتاب غنيم" "ولعل تأخر مساهمة الشباب في دفع خطى الثورة في فلسطين طوال العشرينات يرجع بشكل أساسي إلى قلة الشباب المثقف في تلك الفترة، وعدم اعتراف الجماعات السياسية في البلاد بقطاعات الشباب المختلفة.... وقد أسهم الانتداب بدور رئيسي في هذا المجال. فالمستر فاريل مدير المعارف امر بجلد طلبة مدرسة المعارف في نابلس وهم عراة الأجسام، بتهمة الاشتراك في مظاهرة وطنية عام ١٩٣١". ما يستوقف النظر هو تعبير "الشباب المثقف؟، الذي يوحي بأن المثقفين الشباب يفوقون غيرهم من الشباب كفاحية واندفاعاً، وهو كلام لا يحمل الكثير من المعنى،

فشباب الفلاحين الأميين كان لهم دور وطني بارز منذ نهاية القرن التاسع عشر، بل أن مفهوم "الحس العفوي الوطني"، الذي نميل إليه،لا يميّز كثيراً بين "المتعلم" و"اللامتعلم"، ذلك أن مشاركة الشباب بالعمل الوطني ارتبطت بالسياق الكفاحي العام. وإذا كان هناك ما يميّز الشباب المتعلم " فذلك عائد إلى العامل الشبابي" أكثر منه إلى "العامل التعليمي". ولعل الارتباط بالسياق هو الذي اعطى الشباب الفلسطيني دوراً فاعلاً وتجديدياً، منذ عام ١٩٣٣، والأعوام اللاحقة، أي مع البدايات الأولى للثورة الوطنية الكبرى، حيث قاد الشباب مظاهرات واسعة في القدس ويافا وعكا، وطالبوا بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وشكلو لجنة تدعى "لجنة حراسة السواحل والحدود"، دورها أيقاف الهجرة غير القانونية. وقد رفع الشباب مطالب متعددة، تخص التعليم والاقتصاد وتتعامل مع "مشاكل الجماهير وتنظيم العمال وتنشيط الحياة الثقافية؟. وكان من الواضح، في عام ١٩٣٥، أن العناصر الشابة قد كسبت أرضاً ، وأصبح بإمكانها أن "تناهض القيادات التقليدية" وأن الحركة الشبابية الفلسطينية أصبحت أشبه بحزب سياسي جديد.

كشفت الحياة الوطنية الفلسطينية، في عشرينات أو ثلاثينات القرن الماضي، عن ارتقاء "الوطنية العفوية، التي حملت قوة وضعفاً في آن: جاءت قوتها من مداها الشعبي الواسع، الذي ضم الفلاحين والمثقفين والشباب، وذلك في مجتمع يشكل فيه الفلاحون أغلبية واسعة، وأتى ضعفها من هيمنة "الإيديولوجيا الوطنية العفوية"، التي تدافع عن الأرض وتتمسك بها، دون أن تؤالف بين الغاية والوسائل المستعملة من أجل تحقيقها.

تكشف التجربة الوطنية، الممتدة من وعد بلفور إلى انطفاء الثورة الوطنية الكبرى، عن العلاقة القوية بين العمل الوطني الواعي لأهدافه، ولو بشكل نسبي، والأخذ بممارسات حداثية، فالأدب والصحافة واللغة الصحافية في ذاتها وتعامل الشباب مع العالم (إضافة إلى الترجمة والمدارس) والمظاهرات.... كل ذلك حمل بعداً حداثيا ونقد الظواهر الاجتماعية الأكثر انغلاقاً وتيبساً.

كان على "الظواهر الحداثية المجزوءة"، التي جمعت بين الكتابة والنقد والصحافة، أن تفضي إلى ظاهرة حداثية ، في مجتمع مرت عليه الحداثة مروراً سريعاً. والمقصود بذلك الحزب السياسي، الذي اختصره المجتمع الفلسطيني، بسبب فقر تجربته السياسية، إلى الحزب ـ الحمولة، أو الحزب ـ العائلة، أو الحزب ـ المتزعم ، ... وعلى الرغم من تقليدية المجتمع استطاعت بعض القوى الشابة والمتعلمة، وهي تكافح من أجل الاستقلال والتجديد، أن تنشئ أحزاباً وأن تقترب من تصورات راقية واقتراحات تجديدية. ومن بين هذه الأحزاب، التي كانت محاطة بأحزاب شكلانية لا معنى لها، حزب الاستقلال، الذي وضع المراجع الموروثة الضيقة جانباً، والتفت إلى الشأن الاجتماعي، في وجوهه الحيوية، الممثل بالشباب والتعليم والعمال والمرأة، وأراد أن يكون قومياً وأن ينسق مع "القوميين" في المناطق المجاورة لفلسطين. وربما كان بإمكان هذا الحزب، الذي صعد في مطلع ثلاثينات القرن الماضي، أن ينشر "عقلانية" في العمل السياسي الفلسطيني، وأن يحرر "الحركة الوطنية"

من آفات الارتجال والغوغائية والاستزلام، غير أن مواجهة القوى التقليدية له حاصرت حركته، وتركته مشروعاً "بدئياً". وإلى جانب حزب الاستقلال كان هناك الحزب الشيوعي، الأكثر قدماً بين "الأحزاب" في فلسطين، الذي أراد التوجه إلى "العمال والفلاحين"، منطلقاً من "براءة فكرية" تلتقي بالواقع صدفة، وإن كانت تلك البراءة حاسمة في محاربتها للصهيونية والتنديد بها، ذلك أن مفهوم الطبقة الماركسي يغاير قطبياً تصوراً صهيونياً قائماً على العرق واللاهوت وعنصرية مقاتلة.. والحزب الثالث، الذي كان حركة شعبوية أكثرمن شيء آخر فهو "الحزب العربي الفلسطيني"، الأكثر نشاطاً من غيره والذي كان مهجوساً، وخاصة في الثلاثينات، ببرقيات الاحتجاج والمظاهرات والبيانات الصاخبة وتقديم المذكرات، وغير ذلك من "الوسائل السلمية" التي حرّضت الناس فترة، ثم سقطت في العجز والركود. يعطي هذا الحزب، الذي التف حوله الفلسطينيون، وكان صادقاً في نواياه، صورة عن الفرق المأساوي بين الهدف المطلوب، تاريخياً، وأشكال الوعي المتاحة، فعلياً.

تقصد الملاحظات السريعة السابقة إلى أمرين: تبيان التراكم الوطني، المتعدد الأشكال، الذي "استأنست" به الوطنية الفلسطينية، قبل النكبة وبعدها، وما زال مرجعاً مضيئاً "لنا" حتى اليوم وإرادة الدفاع عن الذات الوطنية، التي خذلها "تاريخ موضوعي" وداخلتها أشكال من "الغفلة" اقرب إلى العبث، مثل ذلك الصراع الضاحك ـ الباكي بين "الحسينيين والنشاشيبيين".

٤. رمزية منظمة التحرير:

لم يحظ الفلسطينيون بدولة تمثّلهم في زمن السيطرة العثمانية، ولم يختلف الأمر مع مجيء الانتداب البريطاني، الذي اجتهد في إضعاف المجتمع وتوليد "المتزعمين"، الذين يوطدون علاقاتهم مع الإدارة الاستعمارية ويهمشون قضايا الناس. ولم يكن في المجتمع، ببنيته التقليدية الضعيفة، ما يسهم في بناء قيادة سياسية موحدة. ففي مقابل المتزعمين المكتفين، غالباً، بمصالحهم الذاتية، كان هناك مجتمع مكافح بلا قيادة فعلية. وما جاء في مذكرات خليل السكاكيني ونجيب نصار ومحمد عزت دروزه، يعطي صورة عن زعامات أُضيفت إلى المجتمع أكثر مما هي جزء منه. فتحدّث الأول عن "خطباء" يلهبون مشاعر الناس صباحاً ويلوذون ببيوت المسؤولين الإنجليز مساء، وألمح الثاني إلى "وسطاء" يسلعون القضايا الوطنية، ومر الثالث على "جمع من السياسيين تثير خلافاتهم القرف".

ولعل غياب الحياة السياسية في مجتمع تكتسحة الأمية، وهو ما وقف عنده د. عبد الوهاب الكيالي في كتابه الشهير، حين أضاء الجفوة الأقرب إلى القطيعة بين الشعب الثائر و "المتزعمين"، وهي صفة جاءت على قلم نجيب نصار، وهي التي أجهضت إمكانيات تحوّل الحركة الشعبية الواسعة، في ثورة ١٩٣٦، إلى فعل سياسي منظم مدرك لغاياته وللوسائل التي يحتاجها، الأمر الذي سهّل تسلل "الملوك والرؤساء" إلى القرار الوطني الفلسطيني وتعطيله.

أما العقد الذي أعقب هزيمة الثورة، فتميز بإحباط شعبي عام، وبفراغ سياسي فادح، بدت فلسطين فيه خالية من "الزعامات"، أو ما يشبه الزعامات، وفقاً لما قالت به مذكرات محمد عزة دروزه. ولهذا بدا استشهاد القائد النموذجي عبد القادر الحسيني، في نيسان ١٩٤٨، استشهاداً للقضية الوطنية برمتها، وغدت فلسطين أرضاً موائمة لعبث "جيش الإنقاذ"، ذلك العبث الذي مهّدت له قرارات الجامعة العربية الرخوة، التي لا تليق بقضية عادلة وذات خطر، بلغة طه حسين، وهو ما ورد في كتاب حلمي النمنم "طه حسين والصهيونية".

وبعد التهميش الذي أنجبته الجامعة العربية والعبث المعقد الألوان لجيش الإنقاذ، كان على "حكومة عموم فلسطين"، التي قبلت بها الجامعة بعد سقوط فلسطين، أن تولد على صورة سياقها، فتبدو "واعدة" تحلم بالقتال، وينتهي رئيسها أحمد حلمي باشا إلى مكتب صغير في القاهرة، تحاسبه الجامعة على نفقات لا تتجاوز "الستين جنيهاً" في الشهر إلا بقليل، لشراء الأوراق والأقلام و"الشاي"، فلم يكن حلمي باشا يتقاضى مرتباً على عمله.

كان في وضع "حكومة عموم فلسطين"، بعد سنوات قليلة على ولادتها المؤقتة، ما يذكر بالحكمة القاتلة: "لا رحمة للمهزومين"، إذ على الفلسطينيين أن ينصاعوا إلى "فتات القرارات العربية، وأن يلبسوا جلود هزيمتهم، وأن يطمئنوا إلى ما يقال لهم ويصدقونه. والمحصلة أن الفلسطينيين لا يمثلون ذاتهم، فالمهزوم ليس له إلا هزيمته، وأن غيرهم من العرب أكثر جدارة بتمثيلهم. كان الفلسطيني، بعد النكبة، لاجئاً على مستوى الإقامة، ولاجئاً على مستوى القرار، إن لم يكن لاجئاً على مستوى الطموح، فلا طموح لمن سقط في أكثر من هزيمة.

وإذا كانت الوصاية العربية على "الطرف الفلسطيني القاصر"، قد بدت، بعد سنوات النكبة مباشرة، فظة وخشنة، فإن تحولات الخمسينات والستينات اللاحقة، كست الجماعة الفلسطينية بوعود جديدة. نقل الفلسطينيون رغبتهم في تمثيل أنفسهم إلى "قومية عربية" صاعدة، وعهدوا بالتمثيل المنشود إلى "الوحدة العربية" المسرعة الخطا إلى تحققها المنتظر. ولأن الفلسطينيين، وبفضل التجربة، أدركوا الفرق بين طعم العسل والحديث عنه، ارتكنوا إلى السياق، ففي الثامن والعشرين من أيار، ١٩٦٤، عقد في القدس "المجلس الوطني الفلسطيني"، المكوّن من ٤٠٠ مندوب تقريباً، الذي انبثقت منه "منظمة التحرير". أوجز أحمد الشقيري معنى الكيان الوليد قائلاً: "منذ أن حلّت الكارثة أفلت زمام الشعب الفلسطيني من يده، لذلك كانت الحاجة ملحة في أن يقوم الكيان الفلسطيني وأن تهيأ الفرصة كاملة أمام الشعب الفلسطيني لينهض بتبعاته الوطنية لتحرير وطنه...".

ومع أنه من السهل إذابة الحدث، أي ولادة منظمة التحرير، في سياق "قومي" صاعد، أسقطته هزيمة ١٩٦٧، فإن الحدث، فلسطينياً، يتجاوز لحظته ويرتد، زمنياً، إلى الماضي والمستقبل معاً. فقد رأى

الفلسطينيون بأن تحرير وطنهم يستلزم فعلاً ذاتياً مبادراً، تصادى في اختيار القدس مقراً للمجلس الوطني، وتصادت فيه ذكرياتهم عن ثورة ٣٦ والدور العربي الرسمي فيها ودروس "جيش الإنقاذ"/ الذي منع السلاح عن عبد القادر الحسيني. أدرج ياسر عرفات الحاضر والمستقبل في الماضي الوطني بـ "كوفية فلسطينية"، كانت إشارة شعبية مقاتلة في "الثلاثينات المجيدة" المنصرمة.

عبّرت ولادة منظمة التحرير عن إرادة وطنية كلية، تعبيراً عن ارتقاء ثقافي ـ سياسي فلسطيني، وعن استمرارية حياتية فاعلة، جابهت المنفى وهزيمة صاخبة، بدت للقادة الإسرائيليين نهائية ولا خروج منها.

بيد أن الأكثر أهمية في ولادة المنظمة تجلى في كيانية "رمزية" للفلسطينيين، تمثلهم ويتمثلون بها، للمرة الأولى في تاريخ فلسطين الحديث، تتيح لهم أن يتصرّفوا بقضيتهم ولا تدع الغير يتصرّف بها، معتبراً الفلسطينيين جماعة قاصرة، توكل مصيرها إلى "أصحاب الاختصاص". برهنت الإرادة الجديدة عن استمرارية فلسطينية الإنسان الفلسطيني، الذي يخاطب أقداره بلغة فلسطينية مشتقة منه. فبعد تجربة اللجوء، التي ألقت باللاجئ في العراء، واختصرت وجوده إلى زمن لاجئ، لا جذور له ولا أفق، تسلّح برمز واعد، يحاور رموزاً ماضية، ويفتح الضياع الفلسطيني على المستقبل. انتسب الفلسطيني إلى إرادة جماعية، قاتلت ذات مرة، وتريد أن تقاتل من جديد متحررة، ولو بقدر، من أخطاء سابقة.

لم تعد القضية الفلسطينية، بعد ولادة منظمة التحرير،"قضية عربية "بالمعنى البلاغي والتقاسم والوصاية، بل أرادت أن تكون عنصراً جديداً في "الحقل السياسي" في العالم العربي، ينقد ويؤرق ويعلن أن الهزيمة ليست ثابتة، وأن ثباتها من ثبات السلطات التي أفضت إليها. لا غرابة أن تكون "المعركة" جزءاً داخلياً في مسار المنظمة، منذ ولادتها إلى اليوم، وأن يكون حرصها على استقلالها معركة مفتوحة مع أطراف عربية، أدمنت استثمار القضية الفلسطينية لأغراض ليست فلسطينية. ولا غرابة أن يعيش "اللاجئون" عقاباً جماعياً دورياً، ترجم علاقة المنظمة مع أطراف عربية معينة. يستعيد هذا الوضع، من جديد، قول محمود درويش المأساوي: "كم كنا عرباً في إسرائيل، وكم أصبحنا فلسطينيين في بلاد العرب". ولم تكن بلاد العرب، بمعنى درويش، إلا أنظمة قايضت الحقوق الفلسطينية باستقرار ذاتي، يحرس استقرار الفلسطينيين في المنفى.

من المحقق أن أهمية منظمة التحرير لا تتعيّن ببنيتها التنظيمية، ولا تتأتى من وسائلها الكفاحية، خاطئة كانت أو محددة الخطأ، ولا تصدر عن إمكانياتها المعوقة المقيدة، إنما تتجلى في رمزيتها الوطنية التي أمدت الفلسطينيين بكيان سياسي، لم يتح لهم في النصف الأول من القرن العشرين، يبقي قضيتهم قائمة، ويفتح لهم أفقاً يترجمون فيه حقوقهم، بعد أمد يقصر أو يطول. ولعل اختصار المنظمة إلى أخطائها، وهي عملية سائرة، يعبّر عن وعي وطني فادح في فقره، دون أن يعني ذلك حجب الأخطار والتستّر على انحرافات أقرب إلى الفضيحة.

أعلنت المنظمة عن أهميتها في الدعوة إلى وحدة الشعب الفلسطيني، ونقله من مقام "التراكم السكاني"،

الذي لا يقول شيئاً، إلى مقام مجموع إنساني له قضية، تساوي إنسانيته استعداده للدفاع عن قضيته. فقد جاء في المادة التاسعة من "الميثاق القومي الفلسطيني": الفلسطينيون جميعاً جهة وطنية واحدة يعملون لتحرير وطنهم بكل مشاعرهم وطاقاتهم الروحية والمادية"، وأكّدت المادة الرابعة من "النظام الأساسي": "الفلسطينيون جميعاً أعضاء طبيعيون في منظمة التحرير الفلسطينية يؤدون واجبهم في تحرير وطنهم قدر طاقاتهم وكفاءاتهم ....". والواضح في هذا التأكيد استنهاض قيمي ثقافي ـ تربوي، ينقض اختصار الفلسطينيين إلى "مخلوقات بيولوجية"، وفقاً لمعايير "كرت الإعاشة"، ويحرّضهم على التمرد، الذي لا يكون الإنسان المقهور إنساناً إلا به. والواضح أيضاً تقويض "الانتظار السلبي"، الذي يعطف "ابن المخيم" على مخيمه ويصيّره إلى ثبات عنوانه المهانة المتجددة. فإنسانية الإنسان من معاني ما يتوقعه، وقيمته من قيمة ما يقاتل من أجله، وإلا انتهى إلى روح ميتة أُجّل دفنها.

كان في ذلك الانتظار، المتوّج بالبؤس، ما وضع في برنامج حركة "فتح" ١٩٥٨، والذي سبق ولادة المنظمة، لغة غاضبة، أرادت أن تكون طهرانية ومطهِّرة، تحدّثت عن "النواة الصالحة"، في إشارات إلى أمراض سياسية متوارثة، و "الخلية الأولى"، في إحالة إلى بدء غاضب يقطع مع ما سبقه، و "الواقع الفاسد"، الذي لا يمكّن القبول به، و "الطليعة الثورية"، التي تتوحد فيها الثورة والولادة، و "مرحلة التفجير الثوري"، المبشرة بفعل مزلزل يجتث القصور الفلسطيني، وصولاً إلى "المبدأ الثوري"، الذي لا يأتلف مع عادات بليدة وبلاغة قاصرة، ... استلهمت هذه الشعارات ـ المبادئ واقعاً سلبياً عاشه الفلسطينيون، واستجابت إلى ما عرفه الفلسطينيون وتطلّعوا إلى تغييره. ولعل الانطلاق من واقع فلسطيني معيش، كما التوجه إلى "لاجئين" انتظروا "الثأر" والعودة ومجابهة "مركب النقص"، الذي ضربهم به اللجوء، هو الذي عيّن "حركة فتح" ممثلاً لإرادة الفلسطينيين وآمالهم، وصيّرها إلى حركة شعبوية فاعلة، ترى في الفلسطينيين قوتها الأساسية، بل الوحيدة، ويرى فيها الفلسطينيون ممثلهم الفعلي والرمزي الأساسي. بدت "فتح" صورة أخرى عن "الحزب العربي الفلسطيني"، بعد ترهينه، في زمن آخر، وقد أضيف إليه ما كان ينقصه أي :العمل المسلح.

تقود الملاحظات السابقة إلى سؤالين: ما معيار وطنية الفلسطيني في علاقته مع منظمة التحرير؟ وما الذي يجعل من المنظمة فعلاً وطنياً بامتياز؟ تتعيّن وطنية الفلسطيني، من دون مقدمات، بدفاعه الصادر عن وحدة منظمة التحرير، ذلك أن الوحدة قوة، وأن وحدة الفلسطينيين، السياسية والمعنوية والمادية، هي المتكأ الأساسي الذي يبرهن عن استمرار قضيتهم، وأن "المنظمة" تجسيد لإرادة جماعية، وهي، أولاً وأخيراً، محصلة لفعل فلسطيني مقاتل شائك وطويل، لا يزال يتوالد حتى اليوم. وإذا وضعنا ميزان القوى الذي يلف صراع الفلسطينيين مع "غيرهم"، تجلت بالمعنى الحقيقي، الوحدة "استراتيجية الضعفاء" الأساسية، التي تحاصر الضعف وتمنح لـ "الضعفاء المتحدين" أفقاً، وتختبر أخلاقيتهم وتعاين دلالة المسؤولية عندهم. تتأتى وطنية المنظمة من تمثيلها الفلسطينيين جميعاً، ومن اعتبارها فلسطين، جغرافياً وتاريخياً، مرجعاً

للعمل الوطني لا تمكن إذابته في مراجع معنوية، مثل الدين، ذلك أن المتدينين وغير المتدينين يحتاجون إلى أرض ووطن وهوية، ولا في مرجع أيديولوجي يقرأه البعض في "قومية مشتهاة"، فالعربي الذي يدعم، صادقاً، فلسطين، ليس مستعداً، لأسباب مشروعة، أن يتقاسم وطنه مع الفلسطينيين.

لم تظفر ثورة ٣٦ بجهد "عربي" حقيقي يعترف بها، ولم تعترف الجامعة العربية ـ ١٩٤٥ ـ بالدلالة الفعلية للقضية الفلسطينية، وعبثت القيادة العسكرية العربية الشكلانية بعبد القادر الحسيني، وانتهت :حكومة عموم فلسطين" إلى فراغ. انتزعت منظمة التحرير التي استعادت التاريخ الوطني الفلسطيني كله، اعتراف العرب والعالم، وفرضت قضية فلسطين قضية كونية، تعرفها الشعوب والمجتمعات والدول كلها ، في سيرورة مفتوحة أشبه بالحكاية.

مراجع الدراسة

١. هنري لورانس: المغامر والمستشرق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

٢. مارك بلوخ: دفاعاً عن التاريخ، المركز العربي الإسلامي للدراسات الغربية، ٢٠١٢.

٣. Norman G. Finkelstein: verso, London, Newyork, 1995

٤. Joan Peters: From time immemorial, Newyork 1984

٥. يوسف لمدان: العرب والصهيونية (١٨٨٢ ـ ١٩١٤) ، دار الحصاد، دمشق، ٢٠٠٩.

٦. هنري لورانس: المجلد الأول ١٧٩٩ ـ ١٩٢٢، اختراع الأراضي المقدسة، الكتاب الثاني ١٩١٤ ـ ١٩٢٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦.

٧. عادل حسن غنيم: الحركة الوطنية الفلسطينية : ١٩١٧ ـ ١٩٣٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤.

٨. ماهر الشريف: البحث عن هوية، الطبعة الأولى ١٩٩٥، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، قبرص.

٩. رسائل صاحب الكرمل: نجيب نصار، تقديم وإعداد وليد خليف، الناصرة (١٩٩٢).

١٠. روحي الخالدي: تاريخ علم الأدب، دمشق، ١٩٨٤,

١١. يوسف أيوب حداد: خليل السكاكيني، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ بيروت ١٩٨١.

١٢. محمد عزة دروزه: القضية الفلسطينية، دار العرب، دمشق (بلا تاريخ)، الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٦١.

١٣. وليم إ. ديبوس: روح الشعب الأسود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢.

١٤. فيصل درّاج : ذاكرة المغلوبين، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٢.

١٥. يوسف نحماني: مذكرات سمسار أراض صهيوني، جمع وتحرير يوسف فاتيس. ترجمة وتقديم وإعداد د. إلياس شوفاني ، دار الحصاد، دمشق ، ٢٠١٠.

١٦. سري المقدسي: فلسطين الوجه المعكوس ـ احتلال يومي ـ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١١.